في أي طريق تساق الحضارة ؟

الأزمة الاقتصادية : بواعثها واحتمالاتها الأخيرة

لاسماعيل مظهر

الثورة الصناعية وآثارها

كانت البيئة التي يعمل فيها الصناع مجلبة للهناءة والمسرة . فكان المعمل عبارة عن حجرة متسعة في البيت ، ولها باب يفتح الى الشارع . وعلى الرغم من ان ساعات العمل كانت طويلة الا انها كانت تمر سراعاً لما يتخللها من التسلية والمناظر المتجددة على الدوام . فكان الحذاء او الخياط يتكلم في السياسة ويناقش في الحوادث وهو مكبٌّ على عمله . وكان النجار يستطيع ان يكلم جاره او عميله الذي قد يدخل عليه في اثناء عمله يطلب تكليفه عملاً ما . وكان الصانع قبل حدوث الثورة الصناعية واستفحالها فناناً ، يخلق بفنه مميزات صناعية . فكان يضع تصميمها غالباً ، ثم يأخذ في اخراج التصميم الى حيز الوجود ، ويحول ويبدل حتى ينتهي الى صورة تلائم ذوقهُ وميولهُ او ما يكون قد أدرك في ميول الناس . ولا ننسَ ان الصانع اليدوي المستقل كان سيداً حراً يحدد ساعات عمله كما يريد ويبدّل في حالات حياته كيفما يشاء ، كما كان يستولي على كل الربح الذي يمكن ان يخرجه من مصنوعاته من غير شريك فيه

فلما وفدت الآلة على المدنية احدثت تغيراً بل انقلاباً مرعباً في حياة العامل وفي مقامه الاجتماعي . فالآلة العظيمة مع ما يتبعها من آلات العمل الصغيرة اقتضت ان يجتمع عدد كبير من الصناع في بناء واحد يسمى المصنع . ولما كان من شأن الآلة ان تكون اقل نفقة كلما كبر حجمها ، بدأ حجم المصانع يزداد في السعة . ولما كانت البقعة التي تلائم قيام معمل تسترعي اليها انظار الذين يريدون انشاء المعامل ، بدأت المعامل يزحم بعضها بعضاً في بقاع بعينها ، وبذلك اخذت المدن الصناعية في الظهور

وكان اول ظاهرة من ظواهر الانقلاب في حياة العمال ، تحوّل اساسي اخذ يبدو في نظامهم الاجتماعي . فبدلاً من ان يظلّ العمال مختلطين مع بقية افراد الامة وهم جزء منها يتعايشون ويتعاونون ويتقاسمون المسرات والاحزان كما كانوا قبل بدء الانقلاب الصناعي ، اخذوا بعد حدوث ذلك الانقلاب يتجمعون في بيئات لها مؤثراتها التي كوّنت من العمال طبقة خاصة لها اوساطها ولها مصالحها ولها ميولها وخصائصها المنفصلة عن بقية المجتمع . وكان لابدّ من ان يحدث

تجمع العمال في بيئات خاصة حالات اجتماعية على اعظم جانب من الخطورة. فكان للعمال ما يشكون منه وما يتبرمون به في حالات الحياة. ومع مضي الزمن اصبحت حياتهم جحيماً لا يطاق

ومن الانقلابين العظيمين اللذين انتابا المدنية الحديثة: انقلاب الزارع من تابع حرفي الى مستأجر يدفع مالاً تلقاء البذل العسكري في بداءة العصر الاقطاعي، وانقلاب الصانع الحر الى عامل اجير سلبت ارادته وفنيت في ارادة الآلة: تكونت الاسس التي قامت عليها المدنية الرأسمالية، رأس مال المالك الارض وعبيده للزارعون، ورأس مال صاحب المصنع الآلات وعبيده العمال، وقامت الحرب سجالاً بين الطبقات

امتداد الازمة الاقتصادية

الازمة الاقتصادية الحاضرة وليدة امرين لا ثالث لهما. وليدة الامعان في التسليح من ناحية، ووليدة الامعان في الانتاج من ناحية اخرى. ولا بد للتسليح من اموال تجبى واموال تكنز. ولا بد للانتاج من اسواق تستهلك فيها المنتوجات وحواجز جركية تحمي الانتاج القومي. ولقد كانت الحرب العظمى نتيجة لهذه العوامل. ولكنها اظهرت ان هذه العوامل تحمل في تضاعيفها من عناصر الافناء والتحطيم اضعاف ما تحمل من عناصر البناء والتشييد. غير ان الناس لم يظهروا على هذه الحقيقة الا بعد ان عمهم الخراب واخذت عوامل الافناء والتحطيم تعمل في مدنيتهم فتهزها من اساسها وتهددهم بالخراب العاجل. ففي انحاء العالم فقر وجوع وتحفز للثورات والانقلابات الكبيرة، وفيها بجانب الجوع والفقر محصولات تزيد عن حاجته واموال تكفي لاغنائه. فالعالم الآن يشكو الكثرة ويمرض بالاكتناز. ولكن هل يمكن ان يستقوى الجهد البشري على حالة ارادت الطبيعة ان تكون على غير ما هي كائنة

ان التناقض الظاهر في حالات العالم يدل على ان الجهد البشري سوف يعجز عن محو كل السيئات التي كونها الامعان في خلق هذه المدنية الصناعية القائمة على رأس المال. فكثرة تزيد عن الحاجة بجانبها جوع قاتل. واموال مكتنزة تفي بالحاجة بجانبها فقر مدقع. وتحفز للحروب الطاحنة تنفي من تحته الثورات. وضرائب تجبى من الجيوب الخاوية لتعمر بها خزائن الذين عمرتهم الاموال — كل هذه للتناقضات تدل في اول ما تدل عليه ان الجهد البشري سوف يعجز عن معالجة حالة تناصرت على خلقها عوامل تغلغلت في صميم النظام الحاضر واصبحت من دعاماته الاساسية. وهذا في الحقيقة هو عنصر الفساد الذي حمله المدنية الحديثة في تضاعيفها كما أبنا في صدر المقال، والذي سوف يجر بها الى النهاية التي كانت مصير كل حضارة من الحضارات التي سبقتها

كانت الاعتبارات الاقتصادية اعظم الاعتبارات التي كان من الواجب ان يعنى بها واضعو معاهدة السلم. غير ان هذه الاعتبارات اهملت اهمالاً عجل في جر الخراب على الحضارة. فقد

بولغ في تقدير التعويضات اولاً ثم بولغ في تقدير الغرامة الحربية وبولغ ثالثاً في تعيين الوسائل التي تؤدي الى تسديد ديون الحرب . لم يراع الذين وضعوا قواعد السلم الاقتصادية مقدرة الامم على الدفع ولا قدروا ان الشعوب نزعات، يخرج من طوق الحكومات مهما قويت ان تتحكم فيها . فكانت النتيجة ان كل القواعد التي قامت عليها قواعد السلم الاقتصادية قد انهارت واخذت الامم تعلن افلاسها بتوقفها عن الدفع ، حتى فرنسا التي تجمع خزائنها من الذهب مقادير لا يحصرها الوهم

وبقدر ما اهملت الاعتبارات الاقتصادية في معاهدة السلم روعيت الاعتبارات الاثنولوجية من دون ان يحسب للروابط الاقتصادية التي كانت تربط الامبراطوريات المنحلة اقل حساب. وعمدت معاهدة السلم الى الوحدات الاثنولوجية تكون منها وحدات سياسية جديدة تمنحها استقلالاً سياسياً تاماً مقتطعاً من جسم الامبراطوريات المنحلة . ولكن عجزت بالضرورة وكما هو محتوم عن ان تضمن لهذه الوحدات استقلالاً اقتصادياً . فكأنها انشأت دولات ذوات صفات سياسية من غير ان يكون لهذه الدولات حقائق اقتصادية . فاضافت بذلك الى اخطائها الاول في وزن الاعتبارات الاقتصادية خطأ جديداً لم يكن منه بدٌ ما دامت قد عمدت الى تطبيق عهد عصبة الامم في اوروبا . فأخذت هذه الوحدات او بالاحرى الدولات ذوات الصفات السياسية تعمل على تحقيق استقلالها الاقتصادي فأمعنت في ضرب الضرائب، ثم عمدت الى الحواجز الجركية لتحمي منتوجاتها الصناعية ، فسدّت الاسواق وخنقت سبل التجارة أخذاً وعطاء . وزاد هذا استحكام الازمة فأحاطت بالحضارة حالات غير طبيعية لابد من ان تنتهي الى حالة جديدة بغير جدال

على ان هذه الحالات قد صحبتها ظواهر تدل واضح الدلالة على ان معين الحياة في حضارتنا الحاضرة قد نضب وانه لا بد من ان تغذي الحضارة روح جديدة تكوّنها تكويناً آخر وتعيد بناءها على صورة اخرى . فقد رأينا كيف تحول المصنع المستقل الى معمل غير مستقل وكيف تكونت المعامل فكانت مدناً صناعية اساس حياتها التعاون وكيف احدث تأسيس المدينة الصناعية الحاجة الى الاسواق والتعاون بين المنتج والمستهلك . والآن تعود المدنية الرأسمالية الى الظاهرة الاولى التي قامت عليها، تعود الى الدولة المستقلة استقلالاً اقتصادياً ، فكأنها تحاول ان تبدل المصنع المستقل قبل قيام عهد الآلات بالدولة المستقلة ، تعود الى حياة اساسها التنافس لا التعاون والحجر على حرية التجارة لا العمل على التعاون التجاري . وفي هذا دليل على ان صورة المدنية الحاضرة القائمة على رأس المال قد تحجرت وفقدت المرونة الأولى التي قامت على التعاون في فتح الاسواق وتوزيع الثروات توزيعاً يتناسب مع المنتج من المصنوعات ليمكن استهلاكها . ومن وراء ذلك تهدر الشعوب بهدير الثورة بل الثورات التي هي لا بد واقعة

ولكن تنقيح المدنية على وجه جديد يتحقق مع امكان القضاء على سيئات عصر الانتاج الصناعي ، في حين ان نظام المدنية التي سوف تقيمهُ هذه الثورات سيحمل في تضاعيفه عناصر الفساد التي تبدأ تعمل على احباط ماسوف تنشيء من مدنيته ، كما كادت تحبط عناصر الفساد التي حملها نظامنا الحاضر ما يقوم حولنا من حضارة . سنة الاجتماع ولن تجد لها تبديلاً

الأزمة الروحية

في عصور الانتقال التي تظهر فيها عادة نتائج العوامل التي تكونت على مر الاجيال، تصاب الجماعات بأزمات نفسية عميقة الأثر . في خلال العصور التي نشأت فيها الاديان الكبرى ظهرت تلك الازمات الروحية باعظم مظاهرها . فقد اصاب العالم الوثني ازمة روحية قبيل ظهور الدين الموسوي ، واصابتهُ اخرى قبيل ظهور الدين المسيحي ولحقت بالعالم النصراني ازمة روحية شديدة قبيل ظهور الدين الاسلامي . وكذلك نجد الحال قبيل ظهور الانقلابات الكبيرة في التاريخ الانساني ، فالحروب الصليبية نتيجة ازمة من تلك الازمات الروحية التي تأخذ بخناق الشعوب ولا تعرف لها من باعث حقيقي اللهم الا البواعث المباشرة التي يزهى المؤرخون بأنهم استطاعوا ان يعللوا بها الحوادث العظمى في التاريخ ، في حين ان بواعثها اعمق غوراً وأبعد عن ان يتناولها البحث الصائب الذي تصح مقدماته فتصح نتائجه ، ويكون لها من الثبات ما للنتائج العلمية . على ان العالم المتمدين الآن مصاب بأزمة من تلك الازمات الروحية التي لن يفلت معها النظام الاجتماعي من انقلاب قد يعظم او يقل خطره على مقتضى الاحوال التي تلابس الانقلاب في اغلب الامر

من مظاهر الازمة الروحية التي اصابت المدنية الحديثة وبالاحرى مدنية الانتاج الصناعي شعور كل طبقة من الطبقات المختلفة شعوراً عميقاً بأن نصيبها من السعادة مهزول لا قيمة له . يتبرم صاحب رأس المال بما يهلكه من المشاغل والمتاعب ونجده في قرارة نفسه يتمنى لو ان الحياة تحبوه قليلاً من رخاء البال وراحة الضمير وأن تقيم بينه وبين متاعب المال حائلاً يحقق له بعض السعادة التي ينشدها . هذا في حالة الفردية . فاذا رجعت الى طبقة اصحاب الاموال باعتبارها كلاً اجتماعياً نتج على طبقة مشتركة المصالح تعمل من غير انقطاع على تذليل سبيل الجمع والاكتناز وكأنهم جنود في ميدان حرب من تأخر منهم حطمته الاقدام ومزقته سنابك الخيل ، فيجدُّ ويعمل ويصل الليل بالنهار ليستطيع مسايرة القافلة في هجومها على بقية طبقات المجتمع لتستلب منها بمقدار ما يُضمن لها البقاء في صف خاص من مراتب النظام الاجتماعي ، اتخذت المال سبيلاً الى اعتلائه ، ثم اخذت تعتقد بأن الصف هو نصيبها من الدنيا وحظها من الحياة بل لا يبعد ان يقرب اعتقادها هذا من اعتقاد الملوك في القرون الاولى اذ كانوا يؤمنون بأن سلطانهم مستمدة من الله ، والا لم يخلقوا ملوكاً . وفي هذا من روح التعصب

والجمود ما يكفي لاحداث ازمة تسمية منشؤها اعتقاد الطبقة العليا من المجتمع الرأسمالي انهم المختارون دون بقية الطبقات

وبجانب هؤلاء طبقة العمال المستعبدين واقعاً، الاحرار قولاً. وهؤلاء يؤمنون بأن الطبقة الاولى هي السد الحائل بينهم وبين السعادة وانهم العقبة التي تمنع عنهم سبل الحياة على ما يجب ان تكون الحياة الانسانية. وهؤلاء بطبيعة مقامهم في نظام الاجتماع هم جيش الهجوم، كما ان الاولين جيش الدفاع. ثم انهم يعتقدون ان رؤوس الاموال والثمرات العالية لهم فيها حق كحق الذين منعوا عليهم طرق الاستمتاع بها، فينظرون الى ما في يد الاغنياء كأنهُ جانب من مالهم وشطر من متاعهم الذي يجب ان ينزع على الجميع. وان الملكية مبدأ وضعه اصحاب الاملاك ورأس المال ازل منزلة القداسة من القانون لان اصحاب رؤوس الاموال هم الذين يشترعون للجميع، وان مبدأ الملكية ورأس المال مؤامرة غير مشروعة يعتزُّ بها الذين ينتفعون به ليسلبوا ممن لا مال لهم كل ما يزيد عما يسد الرمق ويحفظ الارواح في الابدان. ومن الملكية ورأس المال وتثمير الاموال المكتنزة تقوم الدولات العظمى على اسسها الحربية فتستبيح العمال والاوراع بأقصى ما يصل جهدهم ليلقموا بثمرات ما اخرجوا بسواعدهم وفنونهم، بل وبأجسامهم وارواحهم الى الحديد والنار. دفاعاً عن الملكية وعن رؤوس الاموال التي لا يعرفون منها الا الاسم دون المسمى والخبر دون الخبر. وهذه حالة من الفكر تحدث بلا ريب اقسى الازمات الروحية التي تهز اسس المدنية الحديثة

ثم من وراء هذا تقوم مؤامرة متسعة النطاق بين السياسيين وأصحاب الاموال. يسخّر كل فريق منهم الفريق الآخر في سبيل شهواته، فالسياسيون يسخرون أصحاب الاموال بنفوذهم، وأصحاب الاموال يسخرون السياسيين بأموالهم في الحكومات وفي السياسة العالية لان السياسة الحسنة، كما يقول سياسي فرنسوي، تستدعي مالية حسنة، والمال من شأنه ان يحتاج الى قوة تقيه كيدَ من لا مال لهم. فالمؤامرة بين السياسيين وأصحاب الاموال ضرورية بحكم الظرف الاجتماعي. ولكن ضد من تتجه هذه المؤامرات بكل سوآتها؟ تتجه بالطبع ضد الذين لا مال لهم وضد من لا نفوذ لهم في سياسة العالم وتدبير شؤون الدول فيغدي أصحاب الاموال والسياسيون اليد المحركة، ويظل بقية الناس الاداة المنفذة، في معمعان حرب وجلاد لا ناقة لهم فيه ولا جمل. وهذا من شأنه ان يحدث الازمات الروحية المميتة التي يشعر معها الناس ضرورة بأن اساس المدنية ان لم يكن قد فسد بالفعل، فلا اقل من ان يكون الفساد قد دب فيه الى حد يستدعي عمليات حاسمة من البتر والرَّتق ومن القطع والوصل، واي طريق يمهد لهذا غير طريق الثورات الصاخبة والفوضى الآكلة؟

أضف الى هذا ان الناس اصبحوا ولا ثقة لهم بالمثاليات التي اتخذها السياسيون ذريعة

للتأثير في الدهماء وعامة الشعوب تنفيذاً لاغراض خفية ، ان عمي على الشعوب ان يعرفوا شيئاً من ماهيتها في الماضي القريب ، فان تجاريب نيف وربع من القرن العشرين ، قد كنت لان تجعل الناس يشعرون شعوراً عميقاً ثابتاً بان تلك الخياليات لم تكن الا حبائل نسجت واشراك وضعت لاستغلال عطف الجماهير من طريق التأثير في مشاعرهم واستهوائهم بالالفاظ التي لا تحمل من المعاني الفعلية اكثر مما في قلوب الذين يكثرون من التفوه بها من الايمان بحقيقتها . فالشرف الوطني والمجد العالمي ودولة كذا فوق الجميع ، اصبحت لا تزيد في قيمتها شيئاً عن الكلام الذي ينشره التجار عن سلعهم في صفحات الجرائد. وكأن مثل الناس في ذلك كمثل المؤمن الذي يسجد لصنم الف سنة طويلة عسى ان يجبوه الغفران ، فلما مات وانتقل الى العالم الآخر ، تلقفته الزبانية ، فلم يستفق الا وهو في سعير يصلى لظاها . فكانت الصدمة على قدر الايمان والاستفاقة على قدر الغفوة الطويلة التي استلم فيها الشعوب قيادها لمهرة الانتهازيين الذين استطاعوا ان يحكموا المؤامرة من كل اطرافها ، ولكن ليصلوا في النهاية بحمقهم وطماعيتهم الى احداث ازمة روحية تغلي في الصدور

ناهيك بان هذه الحالة قد عقبتها حالة اشد شناعة منها. عنيها اضمحلال الفكرة في المثاليات الاخلاقية . حتى لقد اصبح الكذب والنفاق والختل والمواربة والخيانة لكثرة ما روج لها السياسيون في العصر الحديث ، طابع الخلق العالمي . وعلى حذو السياسيين حذت الشعوب والافراد . فالصادق هو الكذاب الأشر في جماعة لا تعرف الا الكذب . والرجل الحر هو العبد الآبق في جماعة لا تعيش الا بالعبودية . والرجل المستقيم الفكر هو المنافق الخاتل ، في جماعة طابعها النفاق والخاتلة . والرجل الامين هو الخائن في جماعات ما عرفت الا الخيانة وما قدست الا الضلال

لقد سعدت الجماعات فيما مضى باحلامها اللذيذة. سعدت بان في العالم شيئاً يقال له الشرف وشيئاً يقال له الصدق وشيئاً يقال له الحق . وآخر يدعى الحقيقة . تلك كانت احلاماً. ولكنها نزلت في النفوس منزلة الواقع المسلم به . فكان المعتقد ان هذه الاحلام لها حقائقها ولها آثارها الخارجية . فسيق الناس بها . ولكنهم كانوا على الاقل مؤمنين بها ولو باطلاً. كان الناس يؤمنون مطلق ايمان ولو بشيء باطل . ولكنهم الآن يشكون ، لا في هذه الاحلام وحدها ، ولكن في حقائق الحياة ذاتها . يشكون في الحق ويشكون في الصدق ويشكون في الحرية . وهذا الشك وحده كاف لان يحدث ازمة روحية كفيلة ان هي ارادت ان تتنفس بأن لا تترك في المدنية الحاضرة قائماً ولا صعيداً

تلك هي بعض الآثار التي تترتب على قيام الوجه الاقتصادي في اوجه المدنية ، بكل مقتضياته من مال وملكية وسياسة . فني اي طريق تساق الحضارة ؟